١٩

تطوير النبوغ: الوقت، والمهمة، والسياق

لورين آي. سونياك، جامعة سان خوسيه

LAUREN A. SOSNIAK

«اعتقد كثير من المربين، وحتى الناس العاديين، منذ مدّة زمنية قريبة، أن تطوير النبوغ يتعلق أساسًا بمسألة تحديد النبوغ في فترة مبكرة جدًا، ومن ثم تقديم الدعم المناسب له؛ بغية تطويره، وإزالة اللبس الذي قد يكتنف ذلك. فقد يولد الشخص وهو يمتلك مواهب معينة تتطور بواسطة الدعم الصحيح، وإلاّ، فإن تلك المواهب لن ترى النور إطلاقًا».(Howe, 1990)

تجدر الإشارة إلى أن العديد منا بات يفكر بطريقة مختلفة هذه الأيام؛ إذ إنه بصرف النظر عن السمات الفطرية للفرد التي قد تدعم الإنجاز المتميز، فقد تبين لنا أننا ما زلنا بعيدين كل البعد عن تحديدها. وحتى لو كان بمقدورنا تحديد السمات الفطرية التي تساعد على الإنجاز المتميز أيًا كان نوعه، فإن أثرها يكاد يكون ضئيلاً جدًا في الإنجاز النهائي الذي يحققه الفرد. وعلاوة على ذلك، فإننا نعتقد أن الجهود الحالية للتحديد المبكر غير ذات جدوى؛ إذ يبدو أننا نبحث عن الأشياء الخطأ بطرائق غير صحيحة. والأهم من ذلك أننا واثقون تمامًا من أن مستويات الإنجاز الاستثنائية ممكنة للأفراد الذين لم يظهروا نبوغًا مبكرًا في صغرهم.

وقد أدركت شخصيًا أهمية هذا التغير في وجهة النظر هذه، عندما تبين لي أن بنيامين بلوم Benjamin Bloom مدير مشروع تطوير أبحاث النبـــوغ Development of Talent Research Project (Bloom, 1985) قد استخلص نتائج غير متوقعة من إحدى دراساته، بل حتى إنها كانت على عكس ما توقعه في البداية، وكان قادرًا على تغيير وجهة نظره حيال ما اعتقد أنه على علم به. فقد توقع بلوم مع بداية المشروع (Bloom, 1982) أن الأفراد الذين أجريت عليهم الدراسة يمتلكون مبدئيًا موهبة وسمات خاصة، ومن ثم فقد تلقوا التدريس والتشجيع المناسبين لمثل هذه السمات أو المواهب، إلاّ أن البيانات التي أظهرتها نتائج الدراسة أوضحت أن افتراضه المبدئي للاكتشاف المبكر للموهبة، وما تبع ذلك من تعلّم ودعم كان غير صحيح (Bloom, 1982, 1985).

يلاحظ أن عينة الدراسة في المشروع لم تظهر أيّة مؤشرات غير واعدة في البداية، ولم يكن هناك أيّ توجه نحو التميز في حقل بعينه. وعوضًا عن الاكتشاف المبكر الذي يتبعه التطوير، فقد تبين لنا أن الأفراد قد تلقوا دعمًا وتشجيعًا في حقل تعليمي معين، قبل تحديدهم كمتميزين، أو أنهم منحوا تشجيعًا أكثر من اللازم. وقد استُثمر مزيد من الوقت والاهتمام في حقل النبوغ، قاد إلى مزيد من التحديد للمزايا الخاصة، حيث نمت الاستعدادات والمواقف والتوقعات في تناغم مع بعضها بعضًا (Sosniak, 1985). وكما قال بلوم لأحد المراسلين ذات مرّة: «كنا نبحث عن أطفال متميزين، إلاّ أننا وجدنا ظروفًا متميزة» (Carlson, 1985).

يوضح هذا الفصل نتائج مشروع تطوير أبحاث النبوغ، حيث انصب المشروع على دراسة مجموعة من الأفراد الصغار نسبيًا (تحت سن ٣٥ عامًا)، الذين حققوا مستوى معينًا من الإنجاز المتميز في واحد من الحقول الستة التالية: البيانو، والنحت، والسباحة، والتنس، والرياضيات، وعلم الأعصاب (تخصصان في الفنون، ونشاطان في المجال الحس - حركي، وحقلان أكاديميان).

لقد درس هذا المشروع حياة (١٢٠) فردًا نابغًا في المجالات السابقة كلّها، بمعدل (٢٠) في كلّ حقل. وقد أجرينا مقابلات شخصية مع الأفراد، كما قابلنا معظم الآباء. وقد ركّزت الخطة على البحث عن الأنماط المتكررة والمطردة في التاريخ التربوي للمجموعات والإنجازات الواضحة للأفراد، آملة أن يُلقي هذا التناغم الضوء على كيفية تحقيق المستويات العليا للموهبة.

لقد حظيتُ بأن أكون منسقًا للبحث الخاص بفريق من طلاب الدراسات العليا، الذين يعملون بتوجيهات من بلوم(Ben Bloom) في مشروع تطوير أبحاث النبوغ، حيث قابلت العديد من النابغين بنفسي. وقد لخصت في هذا

الفصل الظروف المتميزة التي أشار إليها بلوم، وفهمتها الآن بعد طول تفكير ودراسة. يمكن تلخيص القضية الأساسية بالعنوان التالي «الوقت، والواجب أو المهمة، والسياق». وبطبيعة الحال، فإن هذه العناصر الثلاثة مترابطة معًا، وعندما أتحدث عن كل واحدة منها على حدة، فإن ذلك لغرض التحليل فقط.

الوقت (فرصة التعلّم)

لقد أكد مشروع تطوير أبحاث النبوغ ما توقعه العديد من العلماء وبعض الباحثين، الذين أظهروا من خلال حدث صغير، مثل لعبة الشطرنج، أن تطوير القدرات المتميزة يحتاج إلى وقت طويل. وقد وجدنا، على سبيل المثال، أن عازفي البيانو المعروفين عالميًا قد أمضوا قرابة (١٧) عامًا في العزف، بدءًا بالدرس الأول وانتهاءً بشهرتهم العالمية، وقد انتقل أسرعهم في المجموعة من عازف مبتدئ إلى مبدع في اثني عشر عامًا. أمّا بالنسبة إلى السباحة، فقد استغرق الأمر (١٥) عامًا بين البداية التي كانت للتسلية وحتى الحصول على مركز ما في الألعاب الأولمبية.

إن التبعات المترتبة على المنظور طويل الأجل لعملية التعليم والتعلّم كبيرة. وقد انعكس ذلك على المربين، والآباء، وأفراد المجتمع، خاصة الأطفال الذين عملنا معهم. ويختلف المنظور طويل الأمد الذي يُقدّمه مشروع تطوير أبحاث النبوغ تمامًا عن التعليم والتعلّم لفصل دراسي طويل، أو مساق على مدار العام. فقد أبرز الالتحاق والاستثمار مدة اثني عشر عامًا أو أكثر في تعلّم أمر ما أسئلة مهمة عن التعليم والتعلّم، ورعاية المواهب التي سوف نشير إلى بعض منها في هذا الفصل.

لقد عرضنا، من خلال العمل في مشروع تطوير أبحاث النبوغ، الكثير عن المدّة الزمنية الطويلة التي يمضيها الفرد للوصول إلى الإنجاز المنشود. وكما اعتدنا مرارًا على الهزات في الميادين المتعددة والمتداخلة فيما يخص الوقت الذي يمضيه المرء في التعلّم، فإن الأطفال لا يتلقون تعليمًا في حقل النبوغ فحسب، بل إنهم يقرؤون عنه، أو يستمعون إلى غيرهم وهم يتحدثون عنه.

لقد كانت عملية تطوير النبوغ للأفراد الذين شكلوا عينة الدراسة في المشروع بمثابة عملية تعلّم نمت والتفت، كما الخيط، حول الحياة اليومية للمشاركين. وقد تضمنت هذه العملية مزيجًا من الفرص الرسمية وغير الرسمية، والمنظمة والعرضية، والذاتية والواقعية، والخاصة والعادية، وجميعها حدثت على نحو متزامن. وتجدر الإشارة إلى أن للوقت الذي يُستغرق في التعلّم بُعْدين: عمودي وأفقي، وانفعالي ومعرفي.

ومن أبرز الأمور التي توصلنا إليها في هذا المشروع، أن عملية تطوير النبوغ على المدى البعيد لم تكن لتقاس بكمية المعرفة والمهارة مع مرور الوقت، أو بالعمل المكثف لساعات أطول، بل إنها مسألة تتصل بتحولات تطورية ونوعية. فقد تحول الأفراد، وتحولت المادة التعليمية، وتحولت كذلك الطريقة التي كان الأفراد يتعاملون بها مع المعلمين والمحتوى. كما تبنى الطلاب - تدريجيًا - وجهات نظر مختلفة عمّا كانوا عليه في الماضي، وعن خبراتهم السابقة، فضلاً عن كيفية تناغم مجال التعلّم مع حياتهم (Sosniak, 1987). وقد تبين أن هذه التحولات تتبع نمطًا معينًا يذكرنا «بوتيرة التعلّم»، ومراحل الرومانسية والدقة والتعميم التي أشار اليها وايتهيد (Whitehead, 1929)، وذلك مع مرور وقت طويل على مجال تخصصهم.

الواجب (المهمة)

تتمة لما ذُكر آنفًا، فقد أدركنا أن الوقت الذي يمضيه المتعلم في التعلّم يجب أن يفهم في سياق الواجبات أو المهمات (tasks) المنوطة به؛ إذ قد يستدعي الأمر أن تكون الواجبات المتصلة بتنمية النبوغ وتطويره محدّدة الموضوعات؛ لأن التعرض الكبير لمحتوى الحقل المحدّد يُعدّ مكونًا أساسيًا في تطوير الكفاية البشرية وتنميتها. ويؤدي التعرض الكبير للمعرفة المحددة في حقل معين إلى نتائج مهمة تقود إلى تطوير التلقائية، التي تساعد بدورها - كما يُعتقد- على تفسير قدرات الخبراء في الترميز والتجميع (Glaser & Chi, 1988).

ويبدو أن الواجبات المستخدمة في تطوير النبوغ لا بُدّ أن تتلاءم وخبرة الطالب في مجال الدراسة؛ أي يجب أن تراعي الواجبات الطابع طويل الأجل للخبرة المتصلة بتطوير النبوغ. فقد تحتاج هذه الواجبات إلى أن تكون جاذبية ومشجعة وداعمة لعملية الممارسة في البداية، كما تحتاج إلى توكيد الدقة فقط بعد أن يكون الفرد قد تشبث بفكرة الدراسة وأصبح بمقدوره إدراك قيمة الدقة. وقد تفسح الواجبات المجال للتعبير والنمط الفردي فقط فيما يتصل بأساس معرفي قوي لاتخاذ قرارات حول الانحراف المناسب

عن الممارسات المعيارية. إننا ندرك أن الأفراد الذين كانوا موضع دراستنا قد مرّوا بسلسلة من الواجبات المتباينة في مراحل مختلفة في أثناء العملية الطويلة نحو تطوير الخبرات (Sosniak, 1985b).

تتمثل الفكرة الأساسية الأخرى حول الواجبات في أهمية الربط بين الواجبات التي يُشجع الشباب على الانخراط فيها، والواجبات التي تمثل المجال نفسه في تركيبته الاجتماعية المعاصرة. وتستعمل كلمة «حقيقي» هذه الأيام بكثرة، إلاّ أنها كما يبدو لا تُعبّر عن طبيعة الواجبات التي أظهرتها دراسة مشروع تطوير أبحاث المواهب. فالواجبات كانت أصيلة وحقيقية في كل يوم، وتتسم بالحس السليم. كما صنع الأطفال أشياء يعرفون أن أناسًا آخرين من أعمار مختلفة، وفي أوضاع متنوعة صنعوا مثلها.

يستعمل الأطفال والشباب مواد تُعدّ جزءًا من التقنيات الاجتماعية، فهم يعزفون على البيانو كما يفعل الكبار، ويسبحون في أحواض سباحة تماثل حجم تلك الأحواض الخاصة بالألعاب الأولمبية، ويقرؤون كتبًا ومجلات كُتبت أصلاً لعامة المستهلكين. لقد رُبطت الواجبات التي انخرط فيها الشباب والمواد التي استعملوها لمتابعة هذه الواجبات بالواجبات التي يُقدّرها السواد الأعظم من أبناء المجتمع. ويُدرك الشباب أن تلك الواجبات تحظى بتقدير المجتمع؛ لأنهم رأوها تُطبّق على عائلاتهم ومجتمعهم، وعلى ميادين واسعة أخرى.

وبعبارة أخرى، فإن العمل الذي يؤديه الأطفال والشباب في سعيهم إلى تطوير النبوغ لم يكن عملاً مدرسيًا فقط، حيث إن الأعمال المدرسية تشمل - في كثير من الأحيان- واجبات تتناول القليل من القيم التي تهم العامة، ولا تدعم الحوار والنقاش خارج إطار الغرفة الصفية. ويبدو أن الواجبات المدرسية في الغالب لا تجذب الأفراد في المجتمع للانخراط فيها بصورة طوعية، أو مشاهدتها بدافع ذاتي. وعلى النقيض من ذلك، فإن الواجبات التي يشارك فيها الأطفال والشباب في عملية تطوير النبوغ تربط ما بين حياتهم ونقاشاتهم، وحياة ونقاشات العديد من الناس من أعمار مختلفة ومجتمعات متعددة.

ويبدو أن أحد أهم التحديات التي سنواجهها في السنوات القادمة، يكمن في تحديد الواجبات التي تدعم وتعزز المتعلّم عبر العديد من سنوات التعلّم الضرورية لتحقيق الإنجاز المتميز. وبطبيعة الحال، يجب أن تكون هذه الواجبات ملائمة لخبرة المتعلّم، والبنية الاجتماعية الخاصة بحقول النبوغ، إضافة إلى تجاوبها مع اعتبارات المنهاج، بما في ذلك العناية بتطوير المعرفة والمهارات والتصرفات. كما يجب أن توازن هذه الواجبات بين التحدي والمكافأة، وتشجع الطلاب على الاهتمام بالأمور التي لا يعرفونها، ولا يستطيعون القيام بها، مع المحافظة - في الوقت نفسه - على إثراء معرفتهم، عبر عملية طويلة الأجل لتطوير النبوغ وتنميته.

السياق الاجتماعي

بما أن حقول المعرفة نفسها هي بنية اجتماعية، فإن تطوير النبوغ يتطلب سياقًا اجتماعيًا داعمًا؛ إذ إن أحد أهم الدروس التي تعلّمناها من مشروع تطوير أبحاث النبوغ، هو أن لا أحد بوسعه تطوير موهبته بنفسه، بمعزل عن الدعم والتشجيع والنصح والتبصر والتوجيه وحسن النية من معظم أفراد المجتمع. ويمكن القول إن تطوير النبوغ هو ضريبة يدفعها المجموع في سبيل تحقيق إنجاز فرد واحد من الناس.

لقد اشتملت سنوات العمل العديدة لأفراد العينة الدراسية التي ضمها المشروع، وهم في طريقهم نحو الشهرة العالمية، على مزيد من الانخراط والمشاركة في «مجتمعات الممارسة والتطبيق» في مجال النبوغ الخاص بهم.

تتألف «مجتمعات الممارسة والتطبيق» هذه من جماعات متماثلة في حاجاتها وتطلعاتها، كما يجمعها هدف رئيس تسعى إلى تحقيقه عبر استثمار الوقت والتعاون وتضافر الجهود. ويمكن لمجتمعات الممارسة أن تكون رسمية أو غير رسمية، ومهنية أو غير مهنية. كما قد توجد في حيز مكاني معين، أو قد تكون «افتراضية» تربط بين الناس من خلال الكتابة، والمذياع، والتلفاز، وشبكة الإنترنت.

إنني أعتقد أن أفضل طريقة لنقل معنى واضح لمفهوم «مجتمعات الممارسة» يكون من خلال تقديم أمثلة عليها. تُعدّ العائلات مجتمع الممارسة الأول بالنسبة إلى معظم أفراد عينة الدراسة في المشروع. وبالنسبة إلى الأفراد الذين يودون إظهار إنجازات متميزة، مثل عازف البيانو، فعادة ما ينشؤون في منازل تُقدّر الموسيقى بصورة يومية. أمّا الأفراد الذين يرغبون في التميّز في الألعاب الأولمبية لاحقًا، فإنهم ينشؤون في بيوت تُقدّر الرياضة والرياضيين. فكلّما عرفنا أكثر عن حياة الأطفال اليومية، زاد إدراكنا أن عازف البيانو،

مثلاً، لم ينشأ في بيت يُقدّر السباحة، ولا أن السّباح قد نشأ في منزل يهتم بالموسيقى، وهكذا.

ومع أن الآباء استُبعدوا من الدراسة في الحقول التي سيتميز فيها أبناؤهم لاحقًا، فإنهم كانوا يتمتعون بهواية في المجال نفسه، أو في مجال قريب منه. فقد يكون الآباء محاسبين، أو بائعين، أو محامين، أو بائعي فاكهة، إلاّ أنهم يحبون الموسيقى، أو الرياضة، أو العلوم. وعليه، فإن الأطفال قد تعرضوا بشكل منتظم لتلك الخبرات التي ارتبطت بمجال موهبتهم لاحقًا. فقد تعلّموا بطرائق غير رسمية عن المعرفة والمهارة التي سيتميزون بها في نهاية المطاف، حيث يزود حقل النبوغ كلاً من الأبناء والآباء باهتمامات مشتركة، وبأنشطة وأمور ترفيهية وترويحية.

وبعبارة أخرى، تقدم البيوت في مجتمعات الممارسة هذه، تركيزًا أساسيًا، ودعمًا، وتشجيعًا، ومكافأة على العمل في المجال الأساس. فقد يختار الأطفال الانضمام إلى عالم اهتمام اليافعين، أو قد لا يختارون ذلك، وقد ينضمون إلى مستويات مختلفة. ولكن، إذا كان اهتمام الطفل مغايرًا على نحو كبير لاهتمام الكبار في البيت، فقد لا يجد كل ما يصبو إليه من معرفة رسمية أو غير رسمية في الحقل الأساس. وعلاوة على ذلك، فإذا تباين اهتمام الطفل كثيرًا عن اهتمامات الكبار في البيت، فقد لا يحقق الرضا من التركيز على اهتمام بديل.

لا تنحصر مجتمعات الممارسة في المنزل، بل هناك الكثير منها خارج جدران المنزل. فقد تبين لنا في هذا المشروع أن عازف البيانو الذي بدأ دروسه مع معلم موسيقى محلي، قد شارك كعضو في مجموعة عزف صغيرة مرّة أو مرّتين في العام. كما أن السبّاح الذي تلقى دروسًا في المسابح المحلية أو العامة، قد انضم إلى مجموعة من السبّاحين في نادي السباحة المحلي.

تخلق مجالات الممارسة نفسها مجتمعات ممارسة خاصة بها. فقد أفاد الأفراد الذين أجرينا مقابلات معهم في دراستنا بأنه قد أُتيحت لهم الفرصة، كشباب، للانتقال من الدروس الرسمية وغير الرسمية إلى الفصول الموسيقية ومنافسات الفئات العمرية، حيث شاركوا في المجموعات الموسيقية، والمعارض الفنية، والأندية العلمية، وهكذا. كما تعرّفوا مجموعة من الكتب والمجلات والتسجيلات التي تتصل بمجال موهبتهم. وكانت هنالك مناسبات عامة للشباب أتاحت لهم إظهار خبراتهم التي تعلّموها، مثل: عزف البيانو في المدرسة، أو إظهار أعمالهم الفنية في المعارض، فضلاً عن مراقبتهم المتميزين في مجال النبوغ، أو مَنْ هم أكثر ممارسة في هذا المجال.

تعمل مجتمعات الممارسة على إيجاد الأنشطة والطرائق الخاصة بها في التقرير عن إنجازاتها، إضافة إلى تنظيم مناسبات خاصة بها لتحديد الأفضل من بين أعضائها. ويبدو أن مجتمعات الممارسة المتعددة والمتداخلة التي تعرّف الأفراد إليها قد اجتذبت الشباب، وأوضحت معالم الاهتمامات والحاجات التربوية، ووضعت هؤلاء الشباب في المجموعات الاجتماعية الموجودة، التي تمثل كل مجال من مجالات النبوغ.

إنني آمل أن تكون الصورة التي أوضحتها قد بينت رؤى المجموعات، الذين يشتركون في التركيز على هواية أو اهتمام مهم في حياتهم، ويتشاركون الرغبة في استثمار الوقت والجهد في العمل.

وقد قدّمت مجتمعات الممارسة هذه نماذج للتطور، ومصادر للدعم والتطلعات والتعزيز، كما أنها خلقت معايير للعمل مع المبتدئين والأشخاص العاديين من ذوي الاطلاع والمعرفة، إضافة إلى الخبراء. ففي أفضل أحوالها، نمذجت مجتمعات الممارسة التميز وحفزّته، حيث أعطت معنى للواجبات التعليمية المهمة وحدّدتها، كما دعمت العمل طوال المدة الزمنية الضرورية لتطوير النبوغ.

لقد كان الشباب واليافعون محظوظين بعد احتضانهم من قبل تلك المجتمعات التي شكّلت معالم عملهم، وزادت من إلهامهم. لقد حظوا بفرص متنوعة لرؤية أنفسهم أعضاء في هذه المجتمعات، وباتوا يعرفون معنى الالتزام، ويرقبون عملية تجديد المجتمع، ويعيشونها بأنفسهم.

أسئلة تبحث عن إجابة

لقد قدّم مشروع تطوير أبحاث النبوغ كمًا لا بأس به من البيانات والمعلومات التي أفادتنا كمربين، إلاّ أنه ترك لنا العديد من الأسئلة دون إجابات. وسوف أثير في هذا الجزء، وباختصار، مسألتين يشوبهما الحيرة والتشويش بالنسبة إليّ.

يدور أحد هذين السؤالين الذي أثار اهتمامي كثيرًا في السنوات الأخيرة، حول عدم إظهار أفراد عينة الدراسة مواهب واعدة استثنائية في مجتمعاتهم بداية. لماذا أفاد بعض الآباء والأفراد الذين قابلناهم بأن هناك العديد من الأطفال والشباب الذين تميزوا في مرحلة مبكرة على نحو أفضل ممّن أظهروا تميزًا استثنائيًا في مرحلة الرشد فشملتهم دراستنا هذه؟ ماذا حدث لأولئك العَدّائين في مجال سباق (الماراثون) الذين أظهروا نبوغًا واضحًا في بداية حياتهم؟

لا توجد لدّي إجابات شافية عن مثل هذه الأسئلة، إلاّ أنني أعتقد أنها على درجة من الأهمية بالنسبة إلى المربين في مجتمعنا، وعليهم البحث عن إجابات لها، لكن حدسي الشخصي هو أن الإجابة عن تلك الأسئلة تتعلق بمسائل الوقت والواجب والسياق. كما أنني أعتقد أن بعض الطلاب، ممّن حُدّدوا بداية كمتميزين موهوبين، سوف يجدون أنفسهم يثمنون الخصائص الملتصقة بهم بصفتهم الأول والأسرع والأكثر ذكاءً من غيرهم، على حساب التعامل مع الواجبات الصعبة، التي تستغرق وقتًا طويلاً لإتقانها، أو تلك التي لا تُقدّم مكافأة فورية مجزية.

لقد تعلّمنا من لاعبي التنس في دراستنا، على سبيل المثال، أن بوسع الذكور صغار السن أن يتميزوا في هذه اللعبة في منافسات الفئات العمرية، ولكن إذا لم يكن لدى هؤلاء الشباب الاستعداد لخسارة بعض المباريات ليتعلموا، حتى عندما لا يتمتعون بالطول المناسب وقوة الذراع المطلوبة، فمن غير المرجح أن يحققوا إنجازات متميزة.

كما أنني أتوقع أن الدعم الاجتماعي الذي يحظى به المنبوغ أو المتقدم في أمر ما، يختلف تمامًا عن الدعم الاجتماعي المرتبط بالمشاركة طويلة الأجل، أو إقامة ارتباطات أو صلات متعددة. وبعبارة أخرى، فإن الثناء على الفرد ومكافأته لاحتلاله المركز الأول، قد يختلف كثيرًا عن الثناء عليه ومكافأته لمشاركته في حقل من حقول الدراسة، أو مشاركته آخرين يشاطرونه الاهتمام نفسه في ذاك الحقل.

هذه بالطبع فرضياتي فقط. إنني على استعداد، كما هو الحال بالنسبة إلى بنيامين بلوم، أن اقتنع بأية دراسة بحثية في السنوات القادمة تثبت أن ميولي خطأ. إنني على استعداد لتقبل تفسيرات بديلة لفهم أفضل الطرائق والوسائل التي تدعم تطوير الإنجاز المتميز في شتى الحقول على المدى البعيد. ومع ذلك، يبقى السؤال العالق في الذهن الذي ينتظر إجابة شافية: لماذا أفاد بعض الآباء والأفراد الذين قابلناهم بأن هناك العديد من الأطفال والشباب في مجتمعاتهم الذين تميزوا في مرحلة مبكرة على نحو أفضل ممّن أظهروا تميزًا استثنائيًا في مرحلة الرشد فشملتهم دراستنا هذه؟

أمّا القضية الأخيرة التي أود أن أثيرها والتي أربكتني كثيرًا، فتتعلق بمسألة الفرصة والاختيار. إن الصورة التي حاولت نقلها عن «الوقت، والواجب، والسياق» من أجل تطوير النبوغ تُعدّ مبشرة؛ لأنها تفيد بأن الإنجاز الكبير يصبح ممكنًا في ظل الاستمرار بالواجبات الجوهرية ذات المعنى والخبرة. كما ترى أن بوسع الأفراد والمجتمعات تقديم الدعم لتشجيع مواصلة التصدي للواجبات الصعبة التي يصعب تعلّمها وممارستها، بل إن تحسين مستوى إنجاز الشباب ممكن إذا أعدنا النظر في التعليم والتعلّم على المدى البعيد وفي ضوء سياقات متعددة.

إلاّ أنه ما يزال هنالك جانب مظلم ومثبط يعتري مشروع تطوير أبحاث النبوغ؛ إذ إن فرص مشاركة الشباب في مجال النبوغ، وإيجاد مجتمع ممارسة ذي معنى يعتمد على الحظ، واقتناص الفرص. وهذه الفرص لها علاقة بالظروف المتصلة بالحظ في الولادة، والمجتمعات القريبة. ففي الوقت الذي نشكر فيه كلنا ما يهبنا إياه الحظ، فإنني أشك في أن أحدًا منا يتقبل الفكرة القائلة «إن تطوير النبوغ هو نتيجة هذه الظروف العرضية فقط».

- ما الذي ينبغي لنا فعله كمربين وأعضاء في مجتمعات الممارسة الأساسية لخلق ظروف تسمح لشريحة أكبر من شبابنا بالعمل نحو تطوير النبوغ بصرف النظر عن مكان ولادتهم وعائلاتهم؟
- كيف يمكننا مساعدة الأبناء على ملاءمة اهتماماتهم الخاصة وميولهم مع الإمكانات والفرص المتاحة لهم في مجتمعنا الواسع؟

وبعبارة أخرى، كيف يمكننا العمل لتأكيد أن تطوير النبوغ هو مسألة اختيار وليس حظًا؟

تدعو فرضيتي الخاصة إلى ضرورة التفكير بالفرص التي يوفرها المنهاج داخل البيئة المدرسية وخارجها، وكيفية الاستفادة من السنوات العديدة التي يتطلبها بقاء

الأطفال والشباب في المدرسة، ودراسة كيفية إيجاد حقول متخصصة ومجتمعات ممارسة تدمج في العمل المدرسي. والأهم من ذلك كلّه، إدراك أن المدرسة تشكل جزءًا يسيرًا من حياة الأطفال والشباب، وأن تطوير النبوغ ينمو في مناحي الحياة اليومية كلّها. إن الأسئلة المتصلة بكيفية تقديم الدعم والتشجيع طويل الأجل كثيرة ومتعددة.

إن إدراكنا قدرة العديد من الشباب على تطوير النبوغ قد فتح الباب على مصراعيه أمام الاحتمالات والفرص التربوية السابقة التي لم تدرس. أمّا التحدي الماثل في المستقبل، فيكمن في تنمية النبوغ مع مرور الوقت؛ لذا، علينا تعلّم المزيد عن الواجبات والسياق الاجتماعي اللذين يدعمان تطوير النبوغ، مع التركيز على جعل تطوير النبوغ مسألة اختيار لا مسألة حظ.

الخلاصة

لخص هذا الفصل نتائج مشروع تطوير أبحاث النبوغ (Bloom, 1985)، وبخاصة مسائل الوقت، والواجب، والسياق. فقد عالج قضايا تتصل بالمشاركة طويلة الأجل في حقل دراسي، والمشاركة الشاملة ضمن أبعاد متعددة تتصل بالحياة اليومية للأفراد. وأنا أتحدث هنا عن أن عملية تطوير النبوغ ليست مجرد مسألة مرتبطة بامتلاك الانسان المعرفة والمهارة مع مرور الوقت، كما أنها لا تعني ساعات عمل مكثفة ولمدة أطول، بل هي مسألة تحول تطوري ونوعي للأفراد يتصل بجوهر التعلّم، والتعامل مع المعلمين، والمحتوى المحدد. وقد عالجت جوانب الواجبات الحقيقية والأساسية المتعلقة بتطوير النبوغ، إضافة إلى مسألة تشكل الواجبات حسب خبرة المتعلّم والموضوع الدراسي. كما ناقشت السياق الاجتماعي الداعم للمشاركة طويلة الأجل، وقدّمت نماذج ومصادر ومعايير توضح للشباب طبيعة تطوير النبوغ وكيفيته.

وفي الختام، فقد أثرت تساؤلات حول الشباب الذي أكاد أجزم أننا نخسرهم فعلاً في أثناء سعينا إلى تطوير النبوغ. وقد أشرت على وجه الخصوص إلى التحدي المتصل بجعل النبوغ مسألة اختيار لا مسألة حظ.

أسئلة للتفكير والمناقشة

١. هل تشبه عملية تطوير النبوغ الماراثون أم العدو السريع؟

٢. استنادًا إلى الأبحاث التي أجراها سوسنياك (Sosniak)، ما التغييرات المقترحة التي ستدعم عملية تطوير النبوغ طويلة الأجل في تعليم الموهوبين؟

٣. بخصوص المواهب الأكاديمية:

أ. هل توجد مجالات أكاديمية يُعدّ فيها البدء المبكر مهمًا، وربما يكون أساسيًا، من أجل تطوير إنجاز متميز؟ برّر إجابتك.

ب. هل يوجد لبعض المجالات الأكاديمية نقاط دخول متعددة تسمح ببدايات متأخرة والوصول إلى قمة الإنجاز؟ فسّر إجابتك.

٤. بالنظر إلى مسألة «الاختيار مقابل الحظ». كيف يمكننا المساعدة على انتقال تطوير النبوغ إلى ما بعد ظروف الحظ المتعلقة بالولادة، أو فرصة الحظ التي تربط الطفل بمجتمعه القريب؟

٥. تضمن هذا الفصل الحديث عن الواجبات الحقيقية، ومجتمعات الممارسة الداعمة، فضلاً عن تركيز الاتجاهات التربوية الحالية على التسريع والإثراء، بما في ذلك ضغط المنهاج. كيف يمكن لبرامج الموهوبين الاستجابة لمثل هذه التحديات؟

REFERENCES

Bloom, B. S. (1982). The role of gifts and markers In the development of talent. *Exceptional Children*, 48, 510-521.

Bloom, B.S. (Ed.), (1985). *Developing talent in young people*. New York: Ballantine

Carlson, B. (1985, Fall). Exceptional conditions, not exceptional talent, produce high achievers. *University of Chicago Magazine*, 78(1), 18- 19, 49.

Glaser, R., & Chi, M. T. H. (1988). Overview. In M. T. H. Chi, R. Glaser, & M. J. Farr (Eds.), *The nature of expertise*. Hillsdale, NJ: Erlbaum.

Howe, M. J. A. (Ed.), (1990). *Encouraging the development of exceptional skills and talents*. Leicester, UK: British Psychological Society.

Sosniak, L. A. (1985a). A long – term commitment to learning. In B. S. Bloom (Ed.), *Developing talent in young people* (pp. 477- 506). New York: Ballantine.

Sosniak, L. A. (1985b). Phases of learning. In B. S. Bloom (Ed.), *Developing talent in young people* (pp. 409- 438). New York: Ballantine.

Sosniak, L. A. (1987). The nature of change in successful learning. *Teachers College Record*, 88, 519- 535.

Whitehead, A. N. (1929). *The aims of education*. New York: Macmillan.